



أحمد شوقي ومنفاه الأندلسي

لسنا هنا بصدد الحديث عن أمير الشعراء أحمد شوقي فنطيل وقفتنا أمام تفاصيل حياته وأغراض شعره.. وإنما نحن - استجابة لغرض هذا الكتاب - سوف نقف طويلاً عند مرحلة من حياته.. تمر هكذا مر الكرام على الباحثين.. ربما لأن شوقياً بكل ما حظي به من مكانة اجتماعية وأدبية.. قد بسطت حياته ظلالاً مختلفة على تلك الفترة.. وكأنها جانب من جوانب عبقريته وجائزة منحه إياها السلطة الحاكمة حين خيرته في منفاه فاختر أسبانيا (الأندلس) بلد ابن زيدون.

ونحن نعرف أن أحمد شوقي ولد في حي الحنفي بالقاهرة في 16 أكتوبر عام 1870 والتحق بكتاب الشيخ صالح وعنده 4 سنوات ثم دخل مدرسة المتديان في السنة السادسة من عمره.. ثم المدرسة الخديوية.. ثم مدرسة الحقوق - قسم الترجمة.

وظهرت موهبته الشعرية وهو لا يزال صغيراً في المدارس ثم بدأ ينشر قصائده في الصحف والمجلات.

وينشأ شوقي نشأة أرستقراطية (في باب إسماعيل) إذ عاش في القصر وتربي في أحضانه.. فنشأ بعيداً عن الشعب وعن آماله وآلامه.. ولكن الأحداث سرعان ما بدلته.. حتى صار شاعر مصر الوطني الأكبر.

وقد أرسله الخديوي عام 1887 إلى فرنسا لدراسة الحقوق والآداب ويعود عام 1893 بعد أن نهل من مناهل الغرب علماً وفناً ومعرفة.. يعود

إلى مكانه في القصر.

ولكن العرش لم يلبث أن اهتز تحت قدمي الخديوي عباس فسقط مخلوعاً (19 سبتمبر 1914) وغادر مصر إلى غير رجعة.

واعتلي عرش مصر السلطان حسين كامل بمساعدة الإنجليز.. وأسرعت الأحداث وأعلنت الأحكام العرفية.. وفرضت الرقابة على ما ينشر في الصحف.. وقبضت سلطات الاحتلال على جميع أعضاء الحزب الوطني.. فشردت منهم وسجنت ونفت كما شاءت.. وتوالت الاغتيالات السياسية.

وفي ذلك الصيف الحار كان شوقي في الأستانة وقد رغب البقاء إلى جانب الخديوي عباس الذي كان طريح الفراش هناك ولكن الخديوي ألح عليه في العودة.. فعاد شوقي ليجد الأمور تتبدل.. والناس تنصرف عنه خشية مراقبة السلطات.. ووجد اللغظ يكثر حوله.. ولم تكن العلاقة بينه وبين السلطان حسين كامل على ما يرام.. لأنه سبق وأن عرّض به في قصيدته التي قالها في (كرومر).. فقد كان حسين كامل رئيساً لحفل الوداع الذي أقيم لكرومر وسمع بأذنيه غطرسة كرومر وهجومه ولم يرد عليه.. فقال شوقي:

أيامكم أم عهد إسماعيل

أم أنت فرعون يسوس النيل

أم حاكم في أرض مصر بأمره

لا سائلاً أبداً ولا مستئولاً



يا مالكَ أرقَّ الرقاب بآسَه

هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا

شهد (الحسين) عليه لعن أصوله

ويصدّر الأعمى به تطفيلًا

جبنٌ أقلَّ وخطَّ من قدرِها

والمرءُ إن يجبن يعيش مردزولا

أحسبت أن الله دونك قدرةً

لا يملك التغيير والتبديلا

الله يحكم في الملوك ولم تكن

دول تنازعه القوي لتدولا

واستدعى شوقي للتحقيق.. ولم يدم التحقيق طويلاً.. وأفرج عنه..
لكن سلطات الاحتلال كانت تحشي وجوده في مصر فخبروه البلد التي
يجب أن يذهب (ينفي) إليها.. فاختر شوقي أسبانيا - أندلس العرب..

ويغادر شوقي مصر في الخامس من أغسطس عام 1915 ومعه أسرته
وكتبه.. وها هو يجلس وحده في ركن بعيد من السفينة ويكتب: (إن للنفي
لروعة.. وإن للنأي للوعة.. وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبر هذا الماء..
حين الشر مضطرم.. واليأس محتدم.. والعدو منتقم.. والخصم محتكم..
وحين الشامت جذلان مبتسم.. يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم.. نفانا حكام
عُجم.. أعوان العدوان والظلم.. خلفناهم يفرحون بذهب اللجم..

ويمرحون في أرسان يسمونها الحكم.. ضربونا بسيف لم يطبعوه.. ولم يملكوا أن يرمقوه أو يضعوه.. فما ذنب السيف إذا لم يستح الجلاد).

وهي قطعة فنية أوردتها شوقي في (أسواق الذهب) وأودعها صدق مشاعره.. ومكنون همومه.

وكانت تجربة المنفى ثرية برغم ما فيها من الحرمان والأحزان.. فقد كان فراقه عن الوطن يمثل له العذاب نفسه.. ولهذا وجدناه يصور هذه الحالة المشحونة بالهموم بقوله:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا

نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

ماذا تقصّ علينا غير أن يدا

قصت جناحك جالت في حواشينا

يا من نعز عليهم من ضمائنا

ومن مصون هواهم في تناجينا

ناب الحنين إليكم فى خواطرننا

عن الدلال عليكم فى أمانينا

وفي موقع آخر يرسل شوقي إلى صديقه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات:

يا ساكنى مصر إنا لانزال على

عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا



هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نبلّ به أحشاء صاديننا
كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا
فيرسل إليه حافظ إبراهيم برده الجميل:
عجبت للنيل يدري أن بلبله
صاد ويسقى ربي مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه
وقد نأينا وإن كنا مقيميننا
ولم يكتف شوقي بذلك بل أرسل إلى صديقه الشاعر إسماعيل صبري
يقول:

يا سارى البرق يرمى عن جوانحننا
بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
ترقرق الماء فى عين السماء وما
غاص الأسى فحضبنا الأرض باكيننا

فأجابه إسماعيل صبري:

يا وامض البرق كم نبهت من شجنٍ
في أضلع ذَهَلْتُ عن دائها حيناً
فالماء فى مقلٍ والنار فى مهجٍ
قد حار بينهما أمر المحبينا
لولا تذكر أيام لنا سلفتُ
ما بات يبكى دماً فى الحي باكيننا
يا آل ودَى عودوا لاعدمتكمُ
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

ولم يهدأ شوقي فى منفاه بل كان صوته نايأ حزيناً يبث الحنين والشجن
والإحساس بالغرابة.. وأنات الشوق الحارة.

ويذكر شوقي فى ديوانه أنه طاف بطليطلة وأشبيلىة وقرطبة فيتذكر
سينية البحترى الشهيرة التى يقول فى مطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن ندى كل جبسٍ

فإذا به يعارض هذه القصيدة بسينية أخرى يقول فيها:

اختلاف النهار والليل يُنسى
اذكرالى الصبا وأيام أنسى



وصفالى ملاوةً من شبابٍ
صُورَت من تصورات ومسيّ
وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسى
مستطار إذا البواخر رنت
أول الليل.. أو عوت بعد جرسٍ
يا ابنة اليم ما أبوك بخيلٌ
ماله مولعاً بمنع وحبسٍ
أحرام على بلابله الدو
حُ حلالٌ للطير من كل جنسٍ
نفسى مرجلٌ وقلبي شراعٌ
بهما فى الدموع سىرى وأرسى
واجعلى وجهك (الفنار) ومجرا
ك يد (الثغر) بين (رمل) و(مكس)
وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

شهد الله لم يغب عن جفوني

شخصه ساعة ولم يخل حسّي

وهو في طوافة يذكر تاريخ العرب في الأندلس وحضارتهم العظيمة التي انطلقت منها إلى أوروبا..

ويقف في قرطبة بالمسجد الكبير.. ويرى الحمراء.. وعزة العرب القديمة.. فلا يترك شيئاً إلا ويصفه ويعبر عنه ويمزج ذلك كله بأشجانه الخاصة.

ويتذكر عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) وهو شاعر مثله.. فيقول في قالب الموشحة:

من لنضو يتنزي ألما برّح الشوق به في الغلس
حن للبان وناجى العلما أين شرق الأرض من أندلس

قلت لليل .. وليل عواد من أخو البث فقال: ابن فراق
قلت: ما واديه قال الشجو واد ليس فيه من حجاز أو عراق
قلت: لكن جفنه غير جواد قال: شر الدمع ما ليس يراق
نغبط الطير وما نعلم ما هي فيه من عذاب بس
فدع الطير وحظا قسما صير الأيك كدور الأنس

وحدث في عام 1918 في أثناء نفيه.. أن وافاه البرق بنعي والدته.. فأثر ذلك المصاب في نفسه تأثيرا بليغا.. ولم تمض على هذا الخبر ساعة حتى كتب يبيها:



إلى الله أشكو من عوادى النوى سهما
أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى
توارد والناعى فأوجست رنةً
كلاما على سمعى وفي كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنبُ وانزوى
فيا ويح جنبى كم يسيل وكم يدمى

وبعد أربع سنوات وبعض السنة عاد شوقي إلى مصر.. ولذلك قصة
طريفة.. يحكيها د. ماهر حسن فهمي في كتابه (أحمد شوقي) عن مجلة أبولو
(ديسمبر 1932):

كان من عادة السلطان حسين كامل أن يدعو من حين إلى حين بعض
الشخصيات لتناول الغداء بقصر عابدين.. وفي أواخر سبتمبر عام 1919
كان من بين المدعوين أحمد زكى باشاً - وهو صديق حميم لأحمد شوقي -
وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام.. دعاهم إلى تناول القهوة بالبهو
الكبير.. وجلس السلطان وإلى جواره أحمد زكى باشاً ومحمود شكري باشاً
ودار الحديث في هذه الجلسة عن النهضة العلمية والتطور في الحركة الأدبية
وفي الصحافة والأغاني القومية.. وتطرق الحديث إلى الشاعر إسماعيل
صبري ومستواه الفني الرفيع الذى جعله شيخ الشعراء.. وهنا التفت
السلطان إلى أحمد زكى باشاً وسأله:

- كيف تترجمون في العربية كلمة Mentalite .

قال أحمد زكى باشاً: هذه الصيغة استحدثت لمعنى خاص يقاربه في العربية قولنا (ذهنية) أو (عقلية).

- أ يوجد بين العرب الآن من في قدرته أن يباشى شعراء الإفرنج.. مع هذه العقلية الجديدة والذهنية؟

أجاب: إن هذه الميزة تفرقت في كثير من شعراء العصر ولكنها اجتمعت كلها في شاعر واحد.

قال السلطان: ومن يكون؟

قال: إنه أحمد شوقي.

وهنا أشار محمود شكري باشاً له.. فأحس أنه يشجعه على المضي في الحديث فاسترسل أحمد زكى قائلاً:

- إن شوقي ممن تزدان بهم الدول ولو كان في زمن الخلفاء لتخطفته دمشق وبغداد وقرطبة.. لقد أفاض على العروبة من نفثاته ومنح الشعر والأدب من نفحاته.. حسنات باقية.. وآثاراً خالدة.. أ يصح بعد هذا أن تبقى مصر محرومة من بلبها الغريد.. وأن يرفرف هذا الطائر بجناحه على قرطبة وطليلة وأشبيلية وغرناطة.. بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان؟.. إن الذى نرمقه هو أن نعيد إلى القاهرة رونقها المجتمع في أثواب شوقي.

ووقف السلطان فوق الحاضرون وانصرفوا.. وأسرع محمود شكري يعاتب أحمد زكى على اندفاعه في الحديث فاعتذر أحمد زكى بأن السلطان كان مصغياً إليه.

وبالفعل اقتنع السلطان وطلب من رئيس الوزراء أن يعمل على عودة شوقي من المنفى..



ويصل شوقي إلى القاهرة ولسان حاله يقول:

ويا وطنى لقيتك بعد يأسٍ

كأنى قد لقيتُ بك الشبابا

ولو أنى دعيتُ لكنت دينى

عليه أقابل الحتم المجابا

أدير إليك قبل الموت وجهى

إذا فهتُ الشهادة والمتابا

وتستقبله الجماهير وفي مقدمتهم حافظ إبراهيم على محطة القطار.. ويحيه

حافظ قائلًا:

الحمد لله الذى قدره من بعد غربته إلى أوطانه

فتنظروا آياته وتسمّعوا قد قام بلبلكم على أغصانه

وخرجت الصحف ترحب به وتلقبه بألقابه: سيد الأدباء - أمير

الشعراء.

يعود أحمد شوقي بعد أن قضى سنوات المنفى ليحتضن وطنه مرة

أخرى.. ويعود إليه شبابه وفتوته وإبداعه الجميل.. عاد شوقي ليس جبانًا

متخاذلاً يرهب بطش الحديد والنار.. وإنما كان ثائراً حراً كريهاً فشارك في

الثورة مشاركة فعالة.. وكان مثلاً للشاعر الوطنى الذى يدعو إلى الحرية

والعدالة.